ما بعد نعيق البوم .. !

عبد النبي الشعلة

لن يحاسبنا الجيل القادم !

مصطفى علام

● عبدالنبي الشعلة ●

كان «س» طبيباً ناجحاً ... وكانت زوجته فخورة بنجاحه العملي ... ورغم نجاح «س» في مهنته كطبيب ... إلا أن دخله المحدود قياساً إلى اصدقائه الذين بدأوا يمارسون لعبة المضاربة في الأسهم والعقارات لم يستطع أن يوفر له مستوى الحياة المعيشي الذي كان يحلم به دائماً ...

وكانت السيارة «المرسيدس» التي استطاع صديقه ان يشتريها من ارباح المضاربة تثير دائما له تساؤلاً حاراً ... الى متى أظل اتعامل مع سيارة قديمة تتعطل مني في كل مناسبة ...

وذات يوم قرر اغلاق عيادته المتواضعة ... وترك مهنة الطب ليتفرغ لمشروع الثراء ... وبدأ في المضاربة ...

في أسابيع قليلة استطاع ان يشتري المرسيدس ... وقطعة أرض ليبدأ في بناء قصر الاحلام عليها ...

و..... وفجأة انهار الحلم ... وبدأ البنك يطالب بسداد قيمة الأسهم والعقارات ... ومكث الطبيب «سابقاً» حزيناً يفكر فيما حدث ... كيف ... ولماذا ؟!

ونترك «س» الذي ترك الطب ليمارس المضاربة ... وكان عليه ان يدفع الثمن ... ثمن الحلم الكرتوني ... لنقترب من مرحلة مابعد صمت المدافع ... مرحلة السلام والأمل ... مرحلة ما بعد نعيق البوم ...

و..... ونلتقي بوجه يعرفه الجميع ... عصامي بدأ من الصفر واستطاع في فترة قياسية أن يصبح واحداً من كبار رجال الاعمال المعدودين في البحرين ...

و... ونلتقي بـ «عبد النبي الشعلة» ...

يقول «عبد النبي الشعلة» : أن التجربة السابقة بلا أدنى شك علمتنا الكثير ... وخلقت لدى الكثير منا نوعاً من النضوج في الممارسات والأنشطة الاقتصادية ... وانا لا اشك في ان القطاع الاستثماري على سبيل المثال سوف لن يقع في «مطب» المضاربات في الأسهم أو حتى العقارات ... وسوف تتسم المرحلة القادمة بتحسن في أوضاع اسواق الأسهم والعقارات ... ولكن هذا التحسن سيكون تدريجياً ... وسوف يخلو من القفزات التي شهدتها الفترة السابقة ... وسيساعد على ذلك نضج العديد من المؤسسات المتخصصة مثل سوق الأوراق المالية في الكويت وبروز مؤسسات الأوراق المالية في البحرين التي ستكون بلا شك جديدة وحديثة العهد ولكنها سوف تستفيد من تجارب وممارسات الفترة السابقة ...

- ومازال الكلام لعبد النبي الشعلة - واذا نظرنا الى مؤسسات القطاع الخاص المتعاطية لمختلف الأنشطة التجارية فإنها ستشهد مرحلة من النمو والتطور ... ولكن نموها سيكون مشوبا بالحذر والروية ... فمن حيث الكم هناك الآن عدد اكبر من مثل هذه المؤسسات عما كان عليه الحال عند بدء مرحلة الطفرة ... وهذه المؤسسات بحد ذاتها تتمتع الآن بصلابة وقوة ودراية إكتسبتها عندما تمكنت من «عبور» مرحلة «التراجع» الذي يبدو اننا نشهد الآن آخر ايامه وأسوأها ...

فقد نمت عند هذه المؤسسات خبرات وكفاءات ادارية متطورة سوف تصبح رصيداً في غاية الاهمية عندما «تولج» من جديد معترك المرحلة القادمة ...

وكذلك الحال بالنسبة لمؤسسات القطاع الحكومي ... حيث ايضاً وراء معايير معينة تحكم تلك المرحلة وانعكست على مجموعة من الانشطة التي تمارسها هذه المؤسسات وخصوصاً المرتبطة منها بالمشاريع التنموية ... فقد تتوسع تلك المشاريع بالبذخ والاشباع باكبر من الاحتياجات المطلوبة ... ولذلك فإن هذه المؤسسات سوف تكون ايضاً اكثر تحفظاً وحذراً ...

■■■

■■ و..... ونقاطع حديث «عبد النبي الشعلة» المستطرد قائلاً ... لنطرح مخاوفنا حول ميراث التجربة الماضية من العنصر البشري ... والذي يعتقد البعض انه ميراث جيل تعود ايام الرخاء والاستهلاك باكثر من قدرته على العطاء والانتاج ...

- (ابدأ في الرد على هذه المخاوف) يتخوف البعض وقد يشاركه الكثير من الشك في مقدرتنا على التجاوب مع المعطيات والظروف القادمة على اساس ان العنصر البشري هو المحرك والفاعل للظروف والمعطيات ... وبما ان الظروف القادمة سوف يتعامل ويتفاعل معها جيل يعتبر من نتاج التجربة السابقة ... فإنه سوف لن يستطيع التجاوب مع الظروف القادمة والاستفادة منها ...

وبلا ادنى شك فإن مرحلة الطفرة بالذات قد انتجت جيلاً اتسم نوعاً ما بالاتكالية واللامبالاة وتعود السير على بساط أخضر في ظل ظروف يسيرة ... واستفاد هذا الجيل من التسهيلات والامكانيات العديدة التي وفرت له ...

وانا اعتقد أن هذا التخوف وارد الى حدما ... إلا أن طبيعة الانسان تمتاز دائماً بمقدرتها على التكيف والتجاوب مع المتغيرات ... والدليل على ذلك ان تجربتنا في البحرين على سبيل المثال مع العمالة المحلية قد مرت بظروف صعبة جداً اتسمت بفقدان الثقة بين صاحب العمل والعامل المحلي وخصوصاً في القطاع الخاص ... وكان سبب فقدان هذه الثقة يرجع الى تذمر كل طرف من الطرف الآخر ... فالعامل البحريني كان يأخذ على اصحاب العمل اتجاههم نحو توظيف الايدي العاملة الاجنبية للاستفادة من كلفتها المنخفضة ومن مقدرته على التخلص منها بسهولة في أي وقت يشاء والى حد ما من استغلاله لها ... وصاحب العمل كان يأخذ على العمالة المحلية عدم مبالاتها وعدم استقرارها وارتفاع معدل تسربها وما شابه ذلك ... ولقد استفدنا من فترة «التراجع» حيث تقلصت «الهوة» بين موقف الطرفين ووجدنا نمو علاقة عمل صحيحة بين اصحاب العمل والعمال ... بعد ان وجد العامل المحلي على سبيل المثال ضيق المجال وقلة الخيارات المتاحة امامه ... وبعد ان زادت حاجته الى البقاء والاستقرار في العمل والنمو فيه عن طريق تقديم المزيد من العطاء ... وازاء ذلك تجاوب اصحاب العمل مع هذا الموقف المتغير وشجعوا توظيف العمالة المحلية ووجدوا فيها الى جانب ذلك توفيرا للمال والتكلفة ...

وهذه قد تكون تجربة لم تصبح حتى الآن القاعدة العامة ولكنها بلا ادنى شك دلالة على امكانية تجاوب مختلف القطاعات مع المستجدات والظروف ...

وتبقى الى جانب ذلك أيضاً كدرس استفاد منه الجميع وسوف ينعكس بلا شك على موقف المجتمع من العمل وتقديسه له ... وسوف تنعكس ايضا على العلاقة التي تحكم عنصري العمل الرئيسيين اصحاب العمل والعمال ... ومع ذلك وحتى لو اصبحت تلك هي القاعدة السائدة مستقبلاً فسوف يبقى لكل قاعدة شواذ ..!

■■■

وننتقل مع «عبد النبي الشعلة» الى ملامح المرحلة القادمة ... مرحلة ما بعد السلام ... و... ويقول : من المعروف انه بعد مرحلة وظروف الحروب والتدمير تأتي دائماً مرحلة إعادة البناء والتطوير والتي بدورها تنتج حركة اقتصادية واسعة ... ولا اعتقد ان المنطقة بشكل عام والبحرين بوجه خاص سوف تخرج عن هذه القاعدة ... بل ان المؤشرات تشير الآن الى ان هناك بوادر لبدء مرحلة النمو ... والعنصر الرئيسي هنا هو العنصر النفسي ... ففي ظروف الحرب وعدم الاستقرار يسود احساس بعدم الامان والاستقرار وعدم الثقة في الظروف الراهنة وايضاً عدم وضوح الرؤية ... وينتج عن هذا الاحساس تراجع في الانشطة الاقتصادية وعزوف عن الاستثمار واتجاه نحو تسريب السيولة المالية الى الخارج وتشغيلها في مشاريع وأنشطة استثمارية خارجية لا تعود على الاقتصاد المحلي بفائدة ...

وعندما يعود الاستقرار والسلام الى المنطقة ... فإنه من الطبيعي ان يؤثر ذلك على النفسية العامة للمجتمع ... فتتحرك الانشطة الاستثمارية الى الداخل ... ويبدأ تشغيل رؤوس الاموال محلياً ...

ومن جانب المستهلك فإن اتجاهاته الاستهلاكية تتوسع فيرتفع معدل الطلب في السوق ... ولذلك فإن النشاط التجاري في البحرين والمنطقة بوجه عام سوف يشهد مرحلة «

استكملنا البنية الرئيسية

نمو واسعة متأثرة بعدة عوامل أولها العامل النفسي والاندفاع بعد فترة الترقب والانتظار مما يخلق زخم للحركة الاقتصادية ... وسوف يصاحب ذلك بلا ادنى شك نمو انشطة عديدة مرتبطة بعملية اعادة البناء في القطرين الجارين (العراق وايران) وبداية مرحلة التعمير والنمو الاقتصادي فيهما ...

وفي رأيي فإن هناك فرصة سوف تكون متاحة لقطاع البناء والتشييد البحريني الذي كسب مهارة وخبرة في فترة قياسية لم يسبق لمثيله من القطاعات في أي مكان آخر بالعالم ان مربها ... واصبحت لدى هذا القطاع خبرات ومهارات وامكانيات فنية الى جانب القدرة المالية التي يتمتع بها والتي تمكنه من استغلال فرص الانشاءات التي ستتاح بعد السلام ... ولكن بالنسبة للمشاريع الكبرى فلن يمكن الاستفادة منها إلا إذا تم ذلك ضمن تنسيق تام وتعاون وثيق بين مختلف فعاليات هذا القطاع ... ومع ذلك فإن حركة البناء بوجه عام سوف تشهد فترة من النمو بمعدلات متباينة ومختلفة .

ونمو قطاع التجارة والانشاء يعني بحد ذاته نمو حركة الموانى والمطارات والخدمات الأخرى المصاحبة لهذه الأنشطة ...

والبحرين التي استطاعت في مرحلة من المراحل أن تبني مكانتها كمركز مصرفي هام ... واستطاعت رغم الظروف الصعبة التي مر بها هذا القطاع ان تتمسك بهذا الدور وهذه المكانة ... فإن القطاع المصرفي لابد أن يكون الآن متأهب للمرحلة القادمة ... فمشاريع اعادة البناء ونمو القطاع الانشائي والتوسع المتوقع في القطاع التجاري سوف يحتاج الى خدمات مصرفية متطورة ... وسوف يحتاج الى تمويل مالي من خلال المؤسسات المصرفية القائمة في البحرين ...

ونمو القطاع المصرفي يسحب وراءه مجموعة من قطاعات الخدمة الأخرى مثل قطاع التأمين والخدمات القانونية والمحاسبية وغيرها ...

- وما زال الكلام لعبد النبي الشعلة - وهناك قطاع آخر استفاد من مرحلة التراجع ... حيث استطاع ان يجذب إليه اهتمام المسئولين والمستثمرين بغية زيادة مساهمته في الناتج القومي وذلك لمواجهة ظروف هذه المرحلة ... وهو قطاع السياحة الذي حظى باهتمام واسع في السنوات الأخيرة ... وشهد تطوراً ونمواً ملحوظاً ...

واذا كان هذا القطاع قد استطاع ان ينمو في فترة التراجع ... فلا أشك انه سوف يشهد مرحلة انطلاق في المرحلة القادمة شريطة ألا يقل ذلك الاهتمام الذي حظى به في المرحلة السابقة ... وبالطبع فإن وراء هذا القطاع تندرج العديد من الخدمات مثل الفنادق وشركات الطيران والتأمين والصيارفة ... الخ .

■■■

و..... ويتوقف «عبد النبي الشعلة» قليلاً ليراجع صيغة التفاؤل التي «صبغ» بها حديثه عن ملامح المرحلة القادمة ... ويبدأ في الحديث ...

بالطبع أنا لا أود أن أصور الأمور وكأن الدروب كلها مفروشة بالزهور ... وذلك لأن هناك «علة» اساسية يعاني منها اقتصاد المنطقة بشكل عام ...

إذ أن المعروف ان الأنشطة الأخرى برمتها لا يمكن لها ان تنمو إلا إذا كانت تعتمد بشكل اساسي على قاعدة انتاجية صلبة ...

ولذلك فإنه مهما كانت ايجابيات المرحلة القادمة فإننا لن نستطيع الاستفادة بشكل يتسم ببعد الأثر مادمنا نعاني من ضعف القاعدة الانتاجية ...

■■■

ويبقى تساؤل ونحن نطرح ملامح المستقبل حول تنويع مصادر الدخل بعد التجربة الأليمة لهبوط اسعار النفط ... وايضاً تساؤل حول الارتباط بين الدينار البحريني والدولار الامريكي الذي يبدو للبعض وكأنه نوع من «الزواج الكاثوليكي» لا فكاك منه ... وهو تساؤل طرحه بشدة الهبوط الشديد في قيمة الدولار الامريكي ...

ويبدأ عبد النبي الشعلة في الاجابة ...

ان الأمثل هو عدم الاعتماد على مصدر اساسي وعملة واحد ... لكننا يجب أن ننظر للأمور من وجهة واقعية ترتبط بامكانياتنا ... ولم يكن بامكاننا تغيير هذه الوضعية الى الأمثل ... لذلك فإن الجيل القادم سوف لن يستطيع ان «يحاسب» جيلنا على ذلك ... فهيمنة الدولار فرضتها معطيات كثيرة أهمها القوة الأقتصادية والعسكرية والنفوذ السياسي للولايات المتحدة ... وهناك العديد من الدول مرتبطة بالدولار بشكل اكثر خطورة وحدة من ارتباطنا به ...

اما مسألة تنويع مصادر الدخل ... فتلك أمر حيوي جداً يجب الاهتمام به والأستمرار في منحه الأهمية ... ولن تستطيع البحرين بحد ذاتها كدولة تحقيق تنوع ملموس في مصادر الدخل اذا اعتمدت على حجمها فقط ... واعتقد ان تجربة مجلس التعاون الخليجي والتي ستؤدي حتماً الى قيام سوق واحد مشترك ... سوف تساهم بدرجة كبيرة في تحقيق عملية تنويع مصادر الدخل ... والتي يجب ان تعتمد تطوير القاعدة الانتاجية على وهذه بدورها تعتمد على وجود سوق استهلاكية تستطيع ان تستوعب الجزء الاكبر من الانتاج ... وتجعله مؤهلاً ومنافساً للتصدير ...

وهناك بوادر مشجعة والتي تعتبر من فوائد مرحلة التراجع ... حيث حصلت بعض القطاعات الاقتصادية على الاهتمام المطلوب لتوسيعها ... وكما اشرت الى قطاع السياحة ... فإنني اشير هنا الى قطاع الزراعة الذي حصل على اهتمام واسع وتشجيع تطوراً كبيراً في بعض دول المنطقة وخاصة في المملكة العربية السعودية حيث استطاعت ان تحقق اكتفاءاً ذاتياً في الغذاء وتقوم بتصدير الفائض منه ... كما حدث بالنسبة لأنتاجها من القمح ومنتجات الألبان والبيض وغيرها ...

ولا اعتقد ان المسئولين في المنطقة يستطيعون الآن ان يعطوا اهتماماً أقل لهذه الناحية ... بل على العكس اعتقد أن هذه القطاعات سوف تلقي اهتماماً اكبر مستقبلاً على اساس انه في مرحلة الطفرة انصب معظم الأهتمام على تشييد هياكل البنية الرئيسية بحيث تم استكمال الجزء الاعظم منها ان لم يكن كلها ... ولذلك فإن التوجه حتماً سوف يكون باتجاه توسيع القاعدة الانتاجية وتنويع مصادر الدخل .

■■■

إلى هنا وانتهى كلام «عبد النبي الشعلة» ... وهنا ننتقل الى وجه آخر يتميز بكونه وجه شاب ذهب الى الولايات المتحدة ليستقي العلم ... وعاد الى وطنه ليدخل معترك الحياة العملية الاقتصادية ... وهو «جمال الزياني» الذي نتركه لحديثه ...